الفصل الأول

خسارتى لدينى

obeikan.com

obeikan.com

لست أنت دائمًا من تختار ما يخطر على بالك؛ فمضى بعض الأحيان يتسلل بعض ذلك إلى داخل عقلك محتلا للحظة كانت فارغة من الأفكار

كنت فى الثامنة من عمرى، وكنت راقدًا على سريرى، وكان الوقت متأخرًا ليلاً، واستيقظت على صياح أبى فى الطابق الأسفل. إن أبى ضخم الجثة وفى غاية القوة يبلغ طوله ما يتجاوز ١٨٥سم، ويتجاوز وزنه المائة والخمسة من الكيلوجرامات، وهو ذو منكبين عريضين، وذراعين مفتولى العضلات، ورأسه كبيرة وعريضة، وقبضتيه ضخمتين تماثلان فكى المنجلة فى قوة إحكامهما، وهو شديد الفخر بذلك، وقد يستعرض قوته على أطفاله فى بعض الأحيان عندما يكون فى مزاج يسمح بالمزاح. كان يقطع صراخه العميق الذى يشبه الرعد فترات قصيرة، حيث يمكنني أن أسمع بصعوبة صوت أمى المكتوم. حاولت الهروب من لعناته وتهديداته عن طريق دفن رأسى تحت الوسادة، لكن ذلك لم يفلح. يشبه الأمر الاستيقاظ فى منتصف الليل على صوت عاصفة رعدية هوجاء. لا يوجد ما تفعله لتحاشيها إلا الانتظار، والتعلق بالأمل فى عدم حدوث الأذى الجسيم لأى شخص إلى أن ينطفئ الغضب العارم فى النهاية. وقد دعوت مرة أخرى متوسلاً إلى الله أن يخرجه من حياتنا، وراجيًا أن يحمى أمى، ومتضرعًا أن يفك أسارنا من هذا الكابوس المقيم.

هناك صوت ضربة ثقيلة، تشبه صوت ارتطام قطعة من الأثاث عندما يدفعها شخص لتصطدم بالحائط. قفزت من السرير وهرولت مسرعًا على السلالم إلى أسفل، ثم عبرت الممر المظلم متوجهًا إلى المطبخ. وعندما وصلت إلى مدخل المطبخ تسمرت فى مكانى مثل الموتى. على مسافة بضعة أقدام من وقفتى، كانت أمى مرغمة على الالتصاق بطاولة المطبخ تحت ضغط ثقل هيكل أبى الضخم المائل

فوقها. أشاحت برأسها ناحية اليمين وانثنت بجسدها إلى الوراء فى محاولة لتجنب وجهه الذى يبعد بضع بوصات فقط عنها. وبينما هو يقذف بإهاناته ويحكم قبضته على يديها مستخدمًا ذراعية الضخمين، حاولت أن أفكر فى وسيلة لإيقافه، لكن الرعب كان مستوليًا علىَّ. تملكنى الذعر وبدأت فى التنفس بثقل وبصوت عالٍ- أصبت بالتنفس المفرط.

بالرغم من ذلك لم يلتفت لينظر إلىّ، كان واضحًا أن أبى يعلم أننى أقف حيث أنا؛ لأنه توقف عن الصياح، على الرغم من أنه استمر على احتجازه لأمى إلى طاولة المطبخ. تحركت مقتربًا خطوة لرؤية ما إذا كانت أمى قد تأذت، وأدارت أمى وجهها ناحيتى وتبدلت سيماها سريعًا من خوف الأمومة إلى تعبير آخر ينم عن قوة تماسك الذات. وبدا صوتها مثله مثل رئيسة التمريض داخل غرفة الطوارئ طالبة منى بصوت هادئ متزن:

«چيفرى كل شىء على ما يرام، إننى أتحدث مع أبيك. سيكون كل شىء على أحسن حال. الآن عد إلى فراشك مرة أخرى».

لم أتزحزح، على الرغم من تباطؤ تنفسى إلى حد قليل. «چيف» أعادت القول: «لا تقلق. نحن نناقش أمرًا ما فحسب، من فضلك يابنى عد إلى فراشك»

أطلق أبى سراح أمى دون أن يلتفت لينظر إلىّ، وتنحى جانبًا ليفتح الدولاب حيث يضع نظارته.

«حسنا يا أماه». أجبتها وشفتاى ترتعشان وأنا أحاول مغالبة البكاء، ثم استدرت ببطء عائدًا من خلال الممر وصاعدًا على السلالم.

لم أستطع الإيمان بالله بسهولة. بدأت فى مرحلة مبكرة من عمرى فى التشكك الحقيقى فى وجود الخالق الرحمن والحكيم. وغالبًا ما أسمع من أصدقائى المسلمين بأننى هجرت المسيحية مفضلاً الإسلام، لكن ما حدث لم يكن كذلك.

لقد نشأت فى مدينة عنيفة تقع على الشاطئ الشرقى، كما كان جو المنزل أيضًا يتسم بعنف أشد. غالبًا ما كان والدى رجلاً متوحشًا ومدمرًا حاول إطفاء لهيب سعاره الداخلى عن طريق الإمعان فى معاقرة الخمر كل ليلة. كان كل ما فعله به

إدمان الكحول هو جعله سريع التقلب فى المزاج، فبينما هو يضحك ويلقى النكات فى لحظة فسرعان - وعلى غير المتوقع - ما ينقلب فى لحظة تالية إلى حالة الغضب. تشبه الحياة مع والدى وكأنك تحمل على كاهلك صندوق من النيتروجلسرين(*)، فأنت دائمًا على تمام الوعى بأن أدنى إثارة لا يمكن التنبؤ بها قد تخرجه عن طوره، وعندما يحدث له الانفجار يتطلب الأمر عدة ساعات وكميات هائلة من الخمر؛ ليتمكن النوم من التغلب عليه فى النهاية. لقد عشت أنا وأشقائى الأربعة طفولة قلقة مرعبة، لكن كان الأسوأ فيها هو رؤية أبى وهو يوجه الإهانات والتهديدات والشتائم إلى أمى بانتظام.

فى الواقع لم يكن الأمر فى غاية السوء عندما تكون أنت الهدف الواقع عليه غضب أبيك؛ لأنك لا تفكر وقتها فى أى شىء سوى النجاة. وعندما يوجه إليك لكماته، أو تتلاحق ركلاته لك وأنت مطروح على الأرض، أو عندما يلاحقك داخل جنبات المنزل، أو مهددًا لك قائلاً: «سوف يلحقك أذى شديد منى يابنى» فإن الهرب هو محور أفكارك الوحيد. وفى ذروة الهجوم فأنت لا تضع فى اعتبارك العواقب أو التبعات. وقد تلتمس له العذر حتى عندما ينتهى أمر الهجوم؛ لأنك تعتقد بأنك تستحق ذلك إلى حد ما إذا لم يكن ذلك لما فعلت هذه المرة، فربما لما قد فعلت فى السابق. لكن الرعب المصاحب لرؤية والدك متهجمًا على والدتك هو مستوى من الخوف مختلف تمامًا وبالكلية، حيث إنها هى المصدر الوحيد الذى تعرفه للرأفة والحنان والحب، وإذا كان هو سوف يقضى على هذا المصدر، فإنك تكون قد فقدت كل شىء. كذلك فإن ما هو أشد سوءًا من الخوف، الشعور بالذنب الذى يغمرك ويحيط بك من اتجاهات عدة. هناك الشعور بالذنب الآتى من الكراهية المتأصلة التى تنمو بداخلك تجاه أبيك، حيث إننا نتعلم وجوب محبة واحترام والدينا، كما أننا نولد بروابط طبيعية معهم. وهناك أيضًا الذنب الحاصل من معرفة أنك ربما تكون السبب وراء عنف هذه الليلة. قد تكون أنت الذى أشعلت فتيل غضبه بطريقة ما أنت تجهلها. قد تكون كراهيته لك هى وراء الجدال بين أمك وبينه. بعد ذلك كله، هناك الشعور بالذنب الأشد وطأة بين كل ما سبق، وهو

(*) مادة سريعة وشديدة الانفجار - المترجم.

معرفة أنك لم تفعل شيئًا لإيقاف أذى والدك عن والدتك. لقد اختبأت فى غرفتك بسبب الرعب والخوف على كيانك بينما ينفس والدك عن غضبه العارم، وبذلك فقد قايضت واستبدلت أمانك الشخصى باحترامك لذاتك. وبكل واحدة مما سبق فقد حصلت على خبرة جلية تتعلق بضعفك، وعجزك، وعدم أهليتك، وضياع قيمتك، وجبنك، ثم تنمو الكراهية داخلك وتتقيح، ليس فقط نحو الرجل الذى تطلق عليه والدك، وإنما تجاه ذاتك بالمثل. إنه شىء مرعب، مرعب أن يكون خيار طفل هو بين نفسه وبين أمه، ذلك ظلم عظيم.

عندما حضرت جنازة أمى من أعوام مضت، كان الوصف الذى أطلقه عليها كل شخص بعد آخر جاء لتقديم العزاء هو نفس الوصف «أمك كانت قديسة بحق يا (چيف)». وقد بدا أن كل من عرفها كان معجبًا بها ويرثى لها فى الوقت نفسه؛ لأنها تحملت والدى كل تلك الأعوام بمثل هذا العفو والقوة واللطف. لذلك فلم تعتبر نفسها ضحية، كما لم تلتمس الشفقة على الإطلاق، بسبب أن قفص الزواج الذى دخلته عندما كانت فى الواحدة والعشرين من عمرها مثل لها سرًا مقدسًا لا ينبغى فصم عراه. إلى جانب ذلك، كانت تؤكد من وقت لآخر على أنها أحبت أبى، وكان ذلك من الصعوبة علىّ بمكان أن أفهمه.

كانت أمى امرأة قوية الإرادة، مليئة بالحياة والنشاط والثقة. كان شعارها المفضل: «طالما توافرت الإرادة، فهناك دائمًا وسيلة» ودائمًا ما كانت تقول إن كل شىء ممكن بمعونة الله، ولا وجود لأحد أو لشىء فى مقدوره تحطيمها أو الحط من قدرها.

وقد عانت فى عمر السابعة والستين من انهيار عصبى حاد ومقعد، مما جعلنا جميعًا فى حال من الصدمة. لقد آمنا نحن أيضًا بعدم قابليتها للانهيار، بعدها لم تعد على الإطلاق كما كانت. وأمضت آخر ستة أعوام من عمرها تناضل ضد هوس- اكتئاب. ومات أبى عقب موتها بعام واحد.

أنا ما زلت أفتقد أمى بشدة. كانت الشخص الوحيد لمدة طويلة من الزمن الذى كنت قادرًا على حبه. كانت من أقرب أصدقائى إلىّ، وكانت درعى الواقى،

وبطلى الوحيد. كانت كاثوليكية متدينة بعمق، وممرضة تهب نفسها لعملها، ومحبوبة من جميع الجيران، وأكثر الأشخاص الذين عرفتهم عطاءً وإحسانًا.

لا زلت أتذكر كيف واظبت على الزيارة الدورية لسيدة إيطالية عجوز مريضة عصبية المزاج كانت تسكن فى البيت المجاور لنا؛ لكى تقلم أظافر أصابع قدميها وتغسلهما لها. وأتذكر مدى العاطفة التى تكنها لمرضاها فى المستشفى ومدى الدفء الذى يتحدثون به عنها عندما أصل لأخذها من العمل وقت ما كنت مراهقًا. أتذكر كيف كانت أمًا ومعلمة عظيمة، وكانت فى غاية الأمانة، ولم تفحش على الإطلاق فى القول أو تتحدث إلى أى أحد بفظاظة. وقبل كل شىء وبعده، أتذكر مدى عظم الحب الذى أحبته لأبنائها الخمسة، وكيف كدحت فى عملها من أجل أن توفر قدر استطاعتها لهم حياة طبيعية وسعيدة على الرغم من الظرف المعاكس الذى خيم عليهم.

واعتدت منذ صغرى على أحلام اليقظة التى تتعلق بحياة تخلو من أبى. كنت أرجو أن يختفى العنف فحسب. لم أكن أرغب فى مزيد من الخوف.

شعرت بأننى وقعت فى شرك حلم بغيض لا مخرج منه؛ لذلك فقد دعوت الله المرة تلو الأخرى بأن يخلص حياتنا من أبى، وأن يوقف الألم، لكن والدى كان دائمًا هناك، وبدأت فى مرحلة مبكرة من عمرى أتساءل عما إذا كان الله بالفعل موجودًا.

لم يكن فى مقدورى سبر غور حكمة إنزال الله عقوبة بأمى تستغرق جميع عمرها. ولم يكن فى مقدورى تخيل نوع الخطيئة العظمى التى قد تكون أمى ارتكبتها، أو قد ارتكبناها نحن أبناءها؛ لنعاقب عليها بوجود أبى. وكان ينقصنى النضج اللازم لتصنيف مثل هذه الأسئلة على الرغم من الرعب والغضب اللذين تملكانى بما يكفى لإثارتها. كنت صغيرًا للغاية حتى أرى الحكمة وراء السماح بمعاناة أمى من العنف والتهديد الصادرين عن أبى، وصغيرًا للغاية حتى أفهم لماذا يترك الله أطفالاً أبرياء يرتعدون ليلة بعد ليلة داخل فراشهم، رعبًا من أنهم قد لا يرون أمهم فى الصباح التالى، وصغيرًا للغاية حتى أرى كيف أن رحمة الله وغفرانه قد يمتدان

حتى ليسعا أبى مع كل سقطاته المريعة. ما أمكننى رؤيته فى مجمله كان الفوضى والعنف؛ لذلك أصبح من السهل علىّ أن أتشكك فى وجود الله.

أظن أنه ينبغى الآن أن يكون بديهيّا أننى لم أتمكن على الإطلاق من العثور على الله فى الكاثوليكية، أو فى المسيحية، فى هذا الخصوص، حيث نُسجت بينى وبينها صورة أبى المرعبة التى أعمتنى عن رؤية أية حقيقة قد أكتشفها. إننى لم أهجر المسيحية بسبب أية نظريات أو علوم عقيدةية، لقد هجرتها وآمنت بالله بعيدًا عن أى خوف أو غضب، حيث كانا قد توغلا بشدة داخل نسيج حيرتى وصدمتى الخاصتين بطفولتى.

لم تفعل حركات الستينيات والسبعينيات القلقة إلا إعادة تقوية شكوكى. اغتيالات «چون وروبرت كيندى» و«مارتن لوثر كينج» والتى أعقبها السقوط المزرى لنائب الرئيس «أجنيو» وللرئيس «نيكسون» ثم الاضطرابات العنصرية وحروب العصابات التى اشتعلت داخل المدن ومنها مدينتى، إضافة إلى حرب فيتنام الغريبة وعديمة المعنى، كل ذلك أضاف تأكيدًا على الدرس الذى كان قد قويت جذوره بداخلى بالفعل. إن العالم محكوم بعنف عشوائى استنزافى شامل. وبدأت مبكرًا فى التساؤل عن السبب.

- لماذا لا بد للأمر أن يكون بهذا الشكل؟

- لماذا خلق الله مثل هذا العالم العنيف والمفتقد للكمال؟

- لماذا لم يجعلنا الله فى الجنة منذ البداية وتركنا هناك؟

- لماذا خلقنا الله ميالين للإجرام والفساد والتدمير لهذا الحد الهائل؟

- وإذا كانت إرادة الله أن نخضع لمشيئته، فلماذا لم يخلقنا على هذا الوضع منذ البداية؟ لماذا لم يجعلنا الله ملائكة أو أفضل من الملائكة فى بعض الأحيان طالما كان ذلك فى قدرته؟

- لماذا يسمح الله ويدع القوى يعذب ويظلم الضعيف؟

- لماذا يسمح الله بإلقاء الرعب العميق فى قلوب أطفال لا جريرة لهم، وأن يترك العنف الذى ليس من صنع أيديهم آثاره العميقة التى لا تمحى فى نفوسهم؟

كنت أرغب فى معرفة السبب والحصول على إجابة، ولم أكن أعبأ إذا ما أتت الإجابة من الجنة أو جاءت من الجحيم، أو أتت من ملاك أو من قبل الشيطان نفسه، أو جاءت من البابا أو من «تشارلز مانسون»(*) ما أريده فحسب هو تفسير مقنع ومتماسك. ما أريده هو الحقيقة فحسب.

كنت أبلغ من العمر السادسة عشرة عندما قررت الكف عن الإيمان بالله، وعلى الرغم من بقائى ملحداً لسنوات تخطت الاثنتى عشرة سنة عقب ذلك، فقد حافظت مثل العديد من الملحدين على اهتمام حريص تجاه معتقدات الناس الآخرين. ليس فى مقدورى تصنيف نفسى خلال هذه الفترة بين حياتى فى خانة الباحثين (عن الحقيقة)، على الرغم من أننى قد كنت أفعل ذلك لا شعوريّا. أظن أننى رغبت فى فهم أفضل للظاهرة التى اعتقدت بشدة أنها خدعتنى وغررت بى.

مع مرور السنين وجدت أن دائرتى الاجتماعية تجتذب ببطء من منظور دينى إلى آخر. فى بدايات سنواتى فى الثانوية انجذبت تجاه أصحابى من الملحدين، ثم ناحية أصدقاء من اليهود خلال الجزء الأخير من دراستى قبل الجامعية، فى أولى سنوات دراستى الجامعية كان معظم أصدقائى من البروتستانت، وفى السنتين الأخيرتين أقمت علاقات وثيقة مع طلاب هندوسيين وبوذيين من القادمين من وراء البحار. لم أكن أتعمد اختيار أصدقائى بناء على خلفياتهم الدينية- بدا ذلك محض مصادفة فى ذلك الوقت- لكن يبدو الأمر عند الاسترجاع بأنه كان هناك نمط محدد لصداقاتى.

لقد كنت فى غاية حب الاستطلاع تجاه أفكار الآخرين حول الدين، لكننى لم أكن شديد التطفل على ما أعتقد، وإذا وجه إلىّ سؤال حول معتقداتى، فلم يحدث أن أخفيتها على الإطلاق، لكن إجاباتى فى العادة كانت قصيرة ومستقيمة بدون

(*) أحد الهيبز المشهورين، وخطط ونفذ جريمة قتل ممثلة أمريكية مشهورة.

مراوغة ما أمكن ذلك. لم أشأ أن تصبح معتقداتى عائقًا أمام صداقاتى، وعلى أية حال، فكرت فى أن معظم الناس لا يهتمون كثيرًا بالإلحاد.

وعلى الرغم من أننى نادرًا ما انتقدت معتقدات أصدقائى، فقد وجدت أنه كلما ازدادت عقلانيتهم ومنطقيتهم كلما قل أيضًا فهمهم وقدرتهم على الإقناع. فى مقدور المرء أن يحل العديد من الخلافات بين الإيمان وبين العقل عن طريق التقليل من الاختلافات- أو التخلص منها- التى بين الله وبين البشر، وذلك بإضفاء مزيد من البشرية على الله ومن الألوهية على البشر. بذلك ينتهى الأمر بك وصولاً إلى إله أو آلهة لا تستحق عبادتنا لها، أو لا تستحق مجرد العبادة، وإلى بشر أشد نبلاً وقدسية من الإله أو الآلهة التى خلقت هؤلاء البشر. تمثل الأساطير اليونانية المثال الحاد على ذلك، والتى واظبت على الظن بأنها علم الإلهيات الأشد واقعية والأشد أمانة بين علوم الإلهيات.

بدا أصدقائى من اليهود والهندوس والبوذيين مرتاحين إلى إلحادى، لكن بعض أصدقائى من المسيحيين لم يكونوا كذلك، وشعروا فى بعض الأحيان بالحاجة إلى التعبير عن ذلك.

وقادنا ذلك إلى مناقشات عاطفية فى بعض الأوقات، وفى حال حدوث ذلك فعادة ما كنت أعود إلى أسئلتى الأساسية نفسها التى نشأت معها: لماذا خلقنا الله بهذا العنف والميل إلى التدمير وبهذا التوجه الفطرى نحو الشر؟ لماذا لم يجعلنا الله فى الجنة منذ البداية وبطبيعة غير قابلة للإغواء؟ لماذا وهب لنا العقل إذا كان سيتناقض مع الإيمان؟